مشاركات قُرَّاء سلف

قصة
جمع القرآن الكريم

إعداد:
أسامة شحادة

تمهيد

مساهمةً في تدبر وتعظيم القرآن الكريم نذكّر بقصة جمع القرآن الكريم في كتاب واحد، كجزء من وعد الله عز وجل بحفظ كتابه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر، ٩]، وفي الحديث الذي رواه مسلم: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل في الحديث القدسي: **"وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان"**(١)، وهو الأمر الذي أغاظ أعداء الإسلام فحاولوا التشكيك في صحة القرآن الكريم ببعض الشبهات الساقطة والتي فندها العلماء والباحثون، بعد أن فشلوا في الطعن على القرآن الكريم وما فيه من أخبار وأحكام وعقائد، والتي لا تزال الأيام تبين وتكشف عن أسرار القرآن وكنوزه، التي تُعجز العقول وتبهر الألباب.

ومعرفة حقائق جمع القرآن الكريم أمر مهم لما يرسخه في القلب من تعظيم وهيبة لكتاب الله عز وجل، وأنه لقي كل عناية واهتمام من اللحظة الأولى من قبل النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، ويكشف عن جانب مشرق في فضائل الصحابة مما استحقوا به المكانة السامقة.

حفظ القرآن الكريم يعتمد في الأساس على حفظه في الصدور وليس في السطور، كحال الحضارات الشفوية عبر التاريخ، والتي تميز العرب بينهم بدقة الحفظ وكثرته، ولا تزال ملكة الحفظ القوية في المسلمين لليوم، والدليل ملايين حفظة القرآن المجيد في العالم من كل الأجناس والشعوب، وأما الشناقطة من موريتانيا فهم نموذج الحفظ الواسع والمتين.

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

قصة جمع القرآن الكريم مرت بثلاث مراحل زمنية(١):

الأولى: في العهد النبوي.

والثانية: زمن خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

والثالثة: في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

العهد النبوي:

لما أذن الله عز وجل ببداية البعثة المحمدية، أنزل القرآن الكريم من اللوح المحفوظ في السماء السابعة، إلى السماء الدنيا، قال الله تعالى: (إنا أنزلناه في ليلة القدر) [القدر، ١]، قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلًا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢).

والحكمة من نزول القرآن الكريم مفرقًا بحسب الأحداث والوقائع هي تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقلوب المؤمنين فيما يلاقون من تحديات وعقبات، (كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلًا) [الفرقان، ٣٢].

أيضًا من حكمة نزول القرآن مفرقًا منجمًا تسهيل حفظه، والتدرج في التشريع حتى يطيق الناس الالتزام به والانتقال عن جاهليتهم، وشرحت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ذلك فيما رواه البخاري أنها قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول

---

(١) انظر: "جهود الصحابة في جمع القرآن، دراسة تحليلية" للأستاذ أحمد سالم، "جمع القرآن: دراسة تحليلية لمروياته"، للدكتور أكرم عبد خليفة الدليمي، "جمع القرآن الكريم حفظا وكتابةً"، أ. د. علي بن سليمان العبيد، "جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين"، أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، "جمع القرآن في مراحله التاريخية من العصر النبوي إلى العصر الحديث"، مُحَمَّد شرعي أبو زيد.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٤٤١).

شيء: لا تشربوا الخمر. لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنى(١).

وبسبب هذا النزول المستمر للوحي الإلهي بالقرآن الكريم بواسطة جبريل عليه السلام، الذي يسمع الوحي والقرآن الكريم من رب العزة جل جلاله، ثم ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم، واستمرار نزول القرآن طيلة البعثة المحمدية ٢٣ عامًا، لم يكن ممكنًا جمع القرآن في كتاب بين دفتين.

ولكن هذا لا يعني أن القرآن لم يكن مجموعًا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ما سنوضحه في النقاط التالية:

١- كان النبي صلى الله عليه وسلم يدارس جبريل القرآن الكريم في شهر رمضان من كل عام، ودارسه القرآن مرتين في سنته الأخيرة التي توفي فيها، وهذا يؤكد لنا شدة عناية النبي صلى الله عليه وسلم بمدارسة القرآن الكريم، فعن فاطمة رضي الله عنها قالت: أَسر إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين"** رواه البخاري(٢).

وفي هذا أن العناية بالقرآن كانت قضية محورية ومركزية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تكن قضية هامشية أو قليلة الأهمية أو الأولوية، كما يزعم بعض المستشرقين وأذنابهم.

٢- كان الصحابة يحفظون من القرآن الكريم، ومنهم من يحفظ القرآن كاملًا، ويعرفون باسم القراء، ومما يدل على كثرتهم أنه قتل منهم في بعض المعارك أكثر من ٧٠ حافظًا في معركة واحدة!!

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٩٣).

(٢) صحيح البخاري (٣٦٢٤).

وكان الصحابة يعتنون بدقة حفظهم للقرآن الكريم ففي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان، فإذا هو يقرأها على غير ما أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، - وكان هشام يصلي ويقرأ- قال عمر: فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرته حتى سلم فلببته بردائه وانطلقت به أجره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقلت: يا رسول الله! إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتني. فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: (**أرسله يا عمر. اقرأ يا هشام**) فقرأ هشام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**هكذا أُنزلت**). وقرأ عمر فقال: (**هكذا أُنزلت، إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف**)(١).

ونلاحظ هنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو من يتولى تعليم الصحابة القرآن الكريم بنفسه، وهو من يفصل في دقة حفظهم وسلامة نقلهم.

٣- كان النبي صلى الله عليه وسلم قد خصص له مجموعة من الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن الكريم، أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**لا تكتبوا عني، ومن كتب غير القرآن فليمْحه**)(٢).

وعرف هؤلاء الصحابة باسم كتبة الوحي وأقل عدد لهم أورده المحققون هو ١٣ رجلًا، منهم الخلفاء الأربعة وأُبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان.

وكتابة القرآن الكريم بدأت من العهد المكي، ومما يستأنس به: قصة إسلام الفاروق عمر بن الخطاب، وقراءته لسورة (طه) من صحيفة مع أخته فاطمة وزوجها زيد، وإن كان بعض المحدثين يضعف سند القصة(٣).

---

(١) صحيح مسلم (٨١٨).

(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٤).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٦٧ – ٣٦٨).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشرف عليهم ويأمرهم بضم الآيات في السورة الواحدة لبعضها البعض مع ترتيب الآيات في السور، فعن عثمان بن أَبِي العاص، قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا، إذ شخص ببصره ثم صوبه حتى كاد أن يلزقه بالأرض، قال: ثم شخص ببصره فقال: (**أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) [النَّحْل، ٩٠] إِلَى آخِرِهَا**). رواه أحمد(١).

يقول القسطلاني: "وقد كان القرآن كله مكتوبًا في عهده - صلى الله عليه وسلم -، لكن غير مجموع في موضع واحد، ولا مرتب السور"(٢)، وذلك بسبب تنوع المادة التي كتب عليها القرآن الكريم بحسب مقدرات ذاك العصر، والتي تنوعت بين رقاع الجلد ولحف النخل والعظام والحجارة والخشب.

٤- في آخر سنة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم دارس النبي جبريل القرآن مرتين، وبعدها قام النبي صلى الله عليه وسلم بمدارسة بعض الصحابة من كتبة الوحي القرآن الكريم كله، وسميت هذه المدارسة بالعرضة الأخيرة، ومن هؤلاء الصحابة: عبد الله بن مسعود وزيد بن حارثة.

وهكذا يتبين لنا أن القرآن الكريم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم جمعته صدور الصحابة رضوان الله عليهم، وجمع مكتوبًا كله ولكن ليس على شكل كتاب، وهذا من حفظ الله لكتابه الخاتم، وهذا ما تميز به القرآن على سائر الكتب أنه جُمع في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، في الصدور والسطور، بخلاف غيره من الكتب التي لم تدون إلا بعد

---

(١) مسند الإمام أحمد (٤٤١/٢٩). إسناده ضعيف لضعف ليث- وهو ابن أبي سليم- وشهر بن حوشب مختلف فيه، قال ابن كثير: هذا إسناد لا بأس به، وأورد في الباب رواية أخرى في "تفسيره" (٥١٦/٤) عن ابن عباس، وقال: إسناده جيد متصل حسن، قد بين فيه السماع المتصل، ورواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصرًا. وحسن الهيثمي إسناده في "المجمع" (٤٨/٧-٤٩).

(٢) إرشاد الساري (٤٤٦/٧).

قرون متطاولة، أو لم يتسن حفظها من قبل صدور المؤمنين به، ولذلك طالها التحريف والتبديل والضياع.

عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتولي أبو بكر الصديق للخلافة، كان التصدي للمرتدين أول مهمة قام بها أبو بكر رضي الله عنه، وكان في طليعة من تصدى للمرتدين أهل القرآن الكريم من الصحابة الكرام، وذلك أن أهل القرآن هم الطليعة والقدوة في كل شيء، ففي معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب، وهي المعركة الفاصلة مع المرتدين، قال هشام بن عروة: كان شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم يوم اليمامة: "يا أصحاب سورة البقرة"(١)، وقال أبو حذيفة يشحذ الهمم في ذلك اليوم المشهود: "يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال"(٢)، وقد استشهد في اليمامة ألف ومائتا شهيد، كان منهم ٧٠ من قراء القرآن الكريم، وقد لاحظ الفاروق عمر بن الخطاب خطورة استشهاد حفظة القرآن، لأن القرآن الكريم الأصل فيه تلقي المشافهة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال للخليفة أبي بكر رضي الله عنهما: "إن القتل استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشي أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن"، رواه البخاري(٣).

ومن هنا كانت البداية لجمع القرآن الكريم في زمن الصديق في مصحف واحد بين دفتين مرتب السور.

وهو ما سنستعرض خطواته في النقاط التالية:

١- اقتراح الفاروق بجمع القرآن الكريم يدل على متانة وعمق المنهج الذي تعلمه الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم، بالأخذ بالأسباب نحو حمل أمانة القرآن

---

(١) فضائل القرآن للمستغفري (٧١٣).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٣٦٧).

(٣) صحيح البخاري (٤٩٨٦).

والرسالة للبشرية جمعاء، ويدل على عبقرية الفاروق وبعد نظرته الإستراتيجية وملكة الاجتهاد لديه، وفي قبول أبي بكر لاقتراح الفاروق نموذج مشرق لقبول الحاكم النصيحة المخلصة، ومن هنا جاء الأمر الإلهي للمؤمنين والمسلمين باتباع سبيل الصحابة الكرام في قوله تعالى: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا) [النساء: ١١٧]، وهل كان المؤمنون عند نزول هذه الآية الكريمة إلا الصحابة ؟ وقال تعالى: (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق) [البقرة: ١٣٧].

٢- لما اقتنع الخليفة أبو بكر برأي عمر، استدعى زيد بن ثابت، أحد كتاب الوحي وأحد علماء الصحابة، وكلفه الخليفة بمهمة جمع القرآن وقال له: "إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه"(١).

وقد كان زيد جار للنبي صلى الله عليه وسلم يستدعيه حين نزول الوحي ليكتبه، وقد وصف لنا زيد كيف كان يكتب القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "كنت أكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته برحاء شديدة وعرق عرقًا شديدًا مثل الجمان، ثم سُرِّي عنه فكنت أدخل عليه بقطعة الكتف أو كسرةٍ فأكتب وهو يملي علي، فما أفرغ حتى تكاد رجلي تنكسر من ثقل القرآنِ حتى أقول لا أمشي على رجلي أبدًا، فإذا فرغت، قال: (**اقرأْ**) فأقرأه فإن كان فيه سقطٌ أقامه ثم أخرج به إلى الناس"(٢)، ونلاحظ هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يراجع معه المكتوب (فإن كان فيه سقط أقامه)، لنعرف مقدار الدقة التي كتب بها القرآن منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٨٦).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١٩٤٣). قال الهيثمي في الزوائد (١/١٥٢): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون.

٣- ما الذي قام به زيد بأمر الخليفة أبي بكر الصديق ؟

الذي قام به زيد أنه جمع القرآن الكريم المكتوب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بين دفتين في صحف متتابعة مرتب السور، وفي مكان واحد، بعد أن كان مكتوبًا مفرقا على أشياء مختلفة (صحف، عظام، حجارة، جريد النخل...)، وفي أمكان متعددة.

قال الإمام البغوي في شرح السنة: "سعي الصحابة كان في جمعه -أي القرآن- في موضع واحد، لا في ترتيبه، فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على الترتيب الذي هو في مصاحفنا، أنزله الله -تعالى- حملة واحدة في شهر رمضان ليلة القدر إلى السماء الدنيا"(١).

٤- كيف نفذ زيد مهمة جمع القرآن ؟

أولًا: قام الفاروق بالإعلان للناس عن إحضار ما لديهم من القرآن مكتوبًا.

ثانيًا: جلس زيد والفاروق على باب المسجد يستقبلون ما يجيء به الصحابة من القرآن.

ثالثًا: كان يطلب من كل من جاء بشيء من القرآن إحضار شاهدين على أنه كتب هذا بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم.

رابعًا: قام زيد بكتابة القرآن من خلال مطابقة ما كتب من القرآن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بما يحفظه الصحابة في صدورهم من القرآن.

قال زيد: "فتتبعت القرآن أجمعه من العسب، واللخاف، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره"(٢)، أي لم يجدها مكتوبة إلا عند خزيمة، وإلا فزيد وغيره من الصحابة يحفظ هذه الآيات، لكنه يريد أن تكون الآيات محفوظة ومكتوبة، وذلك لزيادة التوثيق والاحتياط.

---

(١) شرح السنة (٥٢٢/٤).

(٢) صحيح البخاري (٤٩٨٦).

٥- كان بداية مهمة جمع القرآن بعد معركة اليمامة في نهاية السنة ١١ للهجرة، وانتهت قبل وفاة أبي بكر في منتصف سنة ١٣ للهجرة.

٦- بعد كتابة القرآن وجمعه، سُلم لأبي بكر الصديق وبقي عنده حتى وفاته، ثم بقي عند عمر حتى استشهد على يد أبو لؤلؤة المجوسي، فبقي عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها، ثم طلبها عثمان لينسخ منها نسخ للأمصار وأعادها لحفصة، فلما توفيت حفصة سنة ٤١ للهجرة، طلب أمير المدينة مروان بن الحكم هذا الصحف من عبد الله بن عمر وأتلفها، حتى تجتمع كلمة المسلمين على المصاحف التي نسخت عن مصحف الصديق ووزعت في البلاد بأمر عثمان رضي الله عنها.

وبهذا أصبح القرآن الكريم مكتوبًا ومرتبًا ومجموعًا في مكان واحد، وذلك وفق أعلى معايير الضبط والتوثيق، ومن خلال عمل جماعي وعلمي وشفاف، أجمع كافة الصحابة رضوان الله عليهم على دقته وصحته وسلامته من الزيادة أو النقصان، بفضل الله وتوفيقه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة فقط.

عهد عثمان ذي النورين رضي الله عنه

توفي أبو بكر الصديق وقد جمع القرآن الكريم كاملًا في مصحف بين دفتين وفي مكان واحد، بعد أن كان مجموعًا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في صدور الصحابة ومكتوبًا على مواد متنوعة في أماكن متفرقة.

وأما في عهد الفاروق عمر بن الخطاب وهو صاحب المبادرة في مشروع الأمة بجمع القرآن الكريم والمشارك فيه، فقد كان طيلة خلافته والتي استمرت عشر سنين مهتمًّا بنشر القرآن وتعليمه وتحفيظه للمسلمين، ففي الطبقات الكبرى لابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: "جمع القرآن في زمان النبي، خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل وعبادة بن صامت وأبي بن كعب وأبو أيوب وأبو الدرداء، فلما كان زمن عمر بن الخطاب كتب إليه يزيد بن أبي سفيان: إن أهل الشام قد كثروا وربلوا وملؤوا المدائن واحتاجوا إلى من

يعلمهم القرآن ويفقههم فأعنّي يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم، فدعا عمر أولئك الخمسة فقال لهم: إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانوني بمن يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأعينوني رحمكم الله بثلاثة منكم، إن أجبتم فاستهموا وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا، فقالوا: ما كنا لنتساهم، هذا شيخ كبير لأبي أيوب وأما هذا فسقيم لأبي بن كعب، فخرج معاذ وعبادة وأبو الدرداء، فقال عمر: ابدؤوا بحمص فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة، منهم من يلقن فإذا رأيتم ذلك فوجهوا إليه طائفة من الناس، فإذا رضيتم منهم فليقم بها واحد وليخرج واحد إلى دمشق والآخر إلى فلسطين. وقدموا حمص فكانوا بها حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ومعاذ إلى فلسطين، وأما معاذ فمات عام طاعون عمواس، وأما عبادة فصار بعد إلى فلسطين فمات بها، وأما أبو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات"(١).

وجاء في ترجمة نافع بن ظريف بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف النوفليّ، عند ابن حجر في كتابه الإصابة، أنه كتب المصحف لعمر(٢)، وروى أبو داود في كتابه المصاحف أن عمر كان يُسر حين يرى مصحفًا عظيمًا مع الناس.

ثم جاء عهد عثمان بن عفان سنة ٢٣ للهجرة، فتوسعت الفتوحات ودخل كثير من الأمم الأعجمية في الإسلام، ويكفى أن نعرف أن دولة الإسلام في عهد عثمان وصلت الصين شرقًا وتونس غربًا وأرمينيا وأذربيجان شمالًا، وانتشر بين هؤلاء الأقوام والأمم معلمو القرآن الكريم من الجيل الثاني والثالث، من التابعين وتابعي التابعين، الذين تتلمذوا على الصحابة الذين نشرهم الفاروق في البلدان، ومعلوم أن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف تسهيلًا وتيسيرًا على الأمة، وكان الصحابة يقرأون بها.

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٢ /٣٥٦ – ٣٥٧).

(٢) الإصابة (٦/٣٢١).

ولكن بسبب حركة الفتوحات والجيوش كان يختلط أهل الشام وأهل العراق وأهل مصر، فتختلف قراءتهم للقرآن بسبب عدم معرفتهم بنزول القرآن على سبعة أحرف، فتحدث مشاحنات ومشاجرات، وقد تنبه لخطورة هذا بعض الصحابة، منهم: حذيفة بن اليمان وهو الصحابي البصير بمعرفة الفتن القادمة على الأمة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد خصه بمعرفة أسماء المنافقين، كان حذيفة مع جيش أهل الشام في فتح أرمينية ثم ذهب لفتح أذربيجان مع أهل العراق في نهاية سنة ٢٤هـ، وكان معه سعيد بن العاص فقال له حذيفة: "أما لئن ترك الناس ليضلن القرآن ثم لا يقومون عليه أبدًا. قال: وما ذاك؟ قال: رأيت أمداد أهل الشام حين قدموا علينا، فرأيت أناسًا من أهل حمص يزعمون لأناس من أهل الكوفة أنهم أصوب قراءة منهم، وأن المقداد أخذها من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ويقول الكوفيون مثل ذلك. ورأيت من أهل دمشق قومًا يقولون لهؤلاء: نحن أصوب منكم قراءة، وقرآنا، ويقول هؤلاء لهم مثل ذلك"، ولما عاد حذيفة للكوفة وجد الناس هناك أيضًا يختلفون في قراءة القرآن، بين قراءة عبدالله بن مسعود أو أبي موسى الأشعري أو المقداد أو سالم.

فغضب حذيفة وقال: والله لئن عشت حتى آتي أمير المؤمنين لأشكون إليه ذلك، ولآمرنه ولأشيرن عليه أن يحول بينهم وبين ذلك، وسافر حذيفة للمدينة لمقابلة عثمان الخليفة، وقال له: "يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى"(١).

ولعلاج هذه المشكلة شاور عثمان الصحابة في توحيد المصاحف في البلدان باعتماد نسخة منقولة من مصحف الصديق، وتكون بحرف قريش، لتجتمع كلمة المسلمين على مصحف واحد بعد أن كثر غير العرب في المسلمين والذين لا يدركون لغات العرب والأحرف السبعة.

---

(١) انظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر (٣٩/٢٤١-٢٤٢).

يقول الخليفة الرابع علي بن أبي طالب: "دعانا –عثمان– فقال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضكم يقول: قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفرًا، وإنكم إن اختلفتم اليوم كان لمن بعدكم أشد اختلافًا.

قلنا: فما ترى؟ قال: أن أجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت"(١).

ولتنفيذ هذا القرار قام عثمان بما يلى:

١- أرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر أن ترسل له مصحف الصديق لينسخ منه مصاحف للبلاد، ثم يعيده لها، وفعلًا أعاده لها.

٢- شكل لجنة من كل من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، لنسخ المصاحف، وقد شاور عثمان الصحابة في ذلك فقرروا أن يملِي سعيد بن العاص لكونه أعرب الناس، وأن يكتب زيد لكونه أكتبهم.

٣- وزيادة في الاحتياط تم مقارنة ما كتبه زيد من مصحف الصديق بما هو مكتوب عند الصحابة، فكان مطابقًا، وأيضًا كان يتم مراجعة ما كتب زيد حذرًا من السهو أو الخطأ أو النقص.

٤- وقد حدد عثمان المنهج العلمي لكتابة المصحف، فقال: لأعضاء اللجنة القرشيين الثلاثة: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا"(٢)، ومثال ذلك اختلاف اللجنة في طريقة كتابة كلمة (التابوت) هل يكتب بتاء مفتوحة أو مربوطة، فرفع الأمر لعثمان فأمر بكتابتها على لسان قريش بالتاء المفتوحة، وعثمان أصلًا من كتبة الوحي في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) المصاحف لابن أبي داود (ص٩٦).

(٢) صحيح البخاري (٤٩٨٧).

٥- وكان عثمان يستشير كبار الصحابة من كتبة الوحي في مواضع اختلاف اللجنة في كتابة بعض الكلمات، فقد أرسل عثمان لأبي بن كعب بكتف شاة فيها (لم يتسن)، وفيها (لا تبديل للخلق)، وفيها (فأمهل الكافرين)، يستشيره في الكتابة الصحيحة لها.

فقام أبي بن كعب فمحا إحدى اللامين، وكتب (لخلق الله)، ومحا (فأمهل) وكتب (فمهل)، وكتب (لم يتسنه) ألحق فيها الهاء.

٦- بعد نسخ مصحف الصديق من قبل اللجنة، يبدو أنه تم الاستعانة ببعض الصحابة الآخرين لنسخ عدة نسخ من المصاحف لتسريع العمل، ثم أرسلت نسخة للبصرة والكوفة والشام ومكة واليمن والبحرين ومصحف بقي عند عثمان بالمدينة، ومع كل نسخة مقرئ، لأن التلقي الشفوي هو الأساس في تعلم القرآن الكريم، كحال النبي صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام.

٧- أمر عثمان بجمع وإحراق أي نسخة من المصحف بخلاف هذه التي أرسلها، حتى ينتهي الخلاف وتتوحد كلمة المسلمين على مصحف إمام جامع.

٨- وقد أجمع الصحابة على صواب فعل عثمان من جمع الناس على مصحف واحد وتحريق ما عداه، ويكفي في هذا قول الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب: "اتقوا الله في عثمان ولا تغلوا فيه، ولا تقولوا له إلا خيرا [أو قولوا له خيرا] في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل إلا عن ملأ منا جميعًا... رحم الله عثمان، لو وليته، لفعلت ما فعل"(١).

وقد بقيت هذه المصاحف التي أرسلها عثمان عند المسلمين يعظمونها ويتوارثونها، فمصحف الشام بقي عند بني أمية مدة خلافتهم، ثم أرسل لعبد الرحمن بن معاوية المعروف بعبد الرحمن الداخل أو صقر قريش في الأندلس، فأوقفه على جامع قرطبة، وكان يقرأ الإمام منه يوميا بعد صلاة الفجر، وبقي هناك سنة ٥٥٢هـ، حيث دخل الغزاة

---

(١) المصاحف، لابن أبي داود (ص٩٦-٩٨)، وصححه الحافظ في الفتح (١٨/٩).

الجامع بدوابهم ومزقوا المصحف، وجمعت صفحاته بجهد، ثم نقل لمراكش في المغرب على يد مؤسس دولة الموحدين، ويذكر بعض العلماء أنه شاهد المصحف المكي سنة ٦٥٧هـ.

وهكذا توحدت الأمة الإسلامية على مصحف واحد عبر تاريخها الطويل، مصحف كتب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وأجمع الصحابة على دقته وسلامته من النقص والزيادة، وتم توثيق آياته من خلال عمل علمي موضوعي شفاف قام على حفظ العدول الثقات مع مطابقته لما كتبه كتبة الوحي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الجهد العلمي قد شهد له المنصفون من غير المسلمين، فهذا أحد المستشرقين يقول: "إن القرآن – يقصد المصحف المعاصر- إذا جرد من الشكل والتنقيط وبعض التعليقات عند أول سورة من كونها مكية أو مدنية، ومن ذكر عدد آياتها يكون تمامًا هو القرآن الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم".

ولا تزال الأمة الإسلامية تتعاهد حفظ القرآن الكريم وجمعه في صدورها بالأسانيد المتصلة للنبي صلى الله عليه وسلم، وبالصحف المكتوبة عن المصحف الأول، مصداقًا لقوله تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر، ٩].

من تاريخ المصحف الشريف

بعد أن تعرفنا على قصة جمع القرآن الكريم، تعالوا نتعرف على محطات رئيسية في مسيرة المصاحف وكتابتها ثم تقسيم المصاحف إلى أجزاء وأحزاب ومن ثم معالم تاريخ طباعة المصحف الشريف.

علمنا أن الصديق رضي الله عنه جمع القرآن الكريم في مصحف بعد أن استشهد كثير من حفظة القرآن الكريم في المعارك مع المرتدين، وأن الفاروق رضي الله عنه أرسل للأمصار معلمين للقرآن من كبار حفظة الصحابة، وأن عثمان رضي الله عنه وحّد المصاحف في البلاد الإسلامية بالنسخ عن مصحف الصديق.

وبقي الأمر كذلك حتى كثرت الفتوحات ودخلت أمم وشعوب كثيرة في الإسلام، وضعفت السليقة العربية بين الناس بسبب هذا الاختلاط الرهيب بين العرب والشعوب غير العربية، ولكن لحاجة الجميع للغة العربية وخاصة لقراءة القرآن، ولكون المصاحف مكتوبة بغير نقاط أو تشكيل رغم تشابه بعض الحروف، كانت العربية تكتب بدون نقط كما تثبت النقوش الحجرية قبل الإسلام؛ لأن العرب كانت لا تحتاج هذه الإضافات لقلة ما يكتبون، ولسليقتهم وفصاحتهم التي تغنيهم عن الحاجة لذلك، من هنا أصبح من الضروري علاج هذه المشكلة حتى لا يخطئ المسلمون الجدد في قراءة الحروف المتشابهة أو يلحنوا في أداء الكلمات على الوجه الصحيح فتتحرف المعاني.

وأصبح بعض المسلمين الجدد يخطئ أخطاء فاحشة في قراءة القرآن، وقد قام العلماء بوضع علم النحو من أجل التسهيل على المسلمين الجدد إتقان العربية، كما عملوا على تطوير اللغة العربية من ناحية شكل الحروف والإملاء، وهنا أصبح عندنا تباين بين الرسم العثماني في المصاحف وما تم تطويره من الإملاء والنحو؛ ولأن الأمة أجمعت على عدم تبديل الرسم العثماني للمصاحف وحرمة ذلك، أصبح هناك تحدٍ يواجه المجتمع الإسلامي وهو كيفية المحافظة على الرسم العثماني، وكيفية تيسير قراءته بشكل سليم للأجيال القادمة.

ولحل هذه المشكلة قام أبو الأسود الدؤلي (توفي ٦٩هـ) وهو أحد العلماء والشعراء ورجالات الدولة في البصرة بوضع نقاط على الحروف تحدد طريقة نطقها، حيث اختار كاتبًا ذكيًّا من بين ثلاثين كاتبًا، وأمره بإحضار حبر (مداد) بلون مختلف عن لون حبر المصحف وقد كانوا يعتنون بكتابة المصاحف بخطوط جميلة، وغالبًا ما كانت هذه النقاط تلون باللون الأحمر وتكون دائرة صغيرة كما في بعض مخطوطات المصاحف القديمة، ثم أمره أن يراقب حركة شفتيه أثناء قراءة القرآن، فإذا فتح أبو الأسود شفتيه يضع نقطة فوق الحرف، وإذا ضم شفتيه يضع نقطة بجانب الحرف، وإذا كسر الحرف فيجعل النقطة تحت الحرف، وإذا اتبع ذلك بغنة يضع نقطتين، وبهذا تم وضع مصحف كامل

منقط، وهنا يجب أن نتنبه إلى مركزية التلقي الشفوي للقرآن الكريم وأنه هو الأصل وليس الكتابة.

وهذا التنقيط كان للحرف الأخير في الكلمة، لكونه أول ما وقع فيه الخلل في كلام الناس، لكن هذه نقاط حركات للحروف وليست النقاط التي نعرفها اليوم لتمييز الحروف من بعضها البعض والتي تسمى (الإعجام)، وهذه حقيقة مفهوم تنقيط أبي الأسود الدؤلي للمصاحف.

كانت طريقة الدؤلي هذه أول محاولة لتمييز حركات الأحرف، وبسبب طبيعة الزمان وعدم توفر وسائل التواصل السريعة، والنسخ اليدوي، قلد البعض طريقة الدؤلي لكن بتغيير مواضع وضع النقاط، ففي مكة مثلًا كان يضعون نقطة الفتحة قبل الحرف ونقطة الضمة فوق الحرف.

وبقيت طريقة الدؤلي سائدة مع ما فيها من مشقة بسبب استخدام نوعين من الحبر في الكتابة، حتى تطورت هذه النقاط لتأخذ شكلها الحالي الذي نعرفه على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب علم العروض (توفي ١٧٠ هـ) الذي حول هذه النقاط إلى صورة مصغرة من الأحرف، فجعل الفتحة ألفا صغيرة لكنها منبطحة فوق الحرف، والضمة واوا صغيرة، والكسرة ياء صغيرة تحت الحرف، ثم اقتصر على جزء من الياء فأصبحت أشبه بالفتحة تحت الحرف، وسميت هذه الرموز بالشكل المستطيل، وأصبح نسخ المصاحف أسهل لعدم الحاجة للونين من الحبر، وأسهل في القراءة حيث لكل حركة رمز خاص بها وليست شكلًا واحدة (نقطة) يختلف موضعها.

وبهذا أصبحت للأحرف العربية رموز إضافية توضح طريقة أدائها، وأصبحت تعرف بالتشكيل، ثم توسعت هذه الرموز فظهرت علامة السكون وعلامة المد وهكذا، وقد كان استخدام هذه الرموز في البداية في ما كتب من الشعر، ولذلك سمي (شكل الشعر) ثم استخدم في نسخ المصاحف وأصبح هو السائد.

ثم جاءت مرحلة تمييز الأحرف المتشابهة عن بعضها البعض حيث تشترك عدة أصوات مختلفة في شكل واحد، ففي زمن الخليفة عبد الملك بن مروان (توفي ٨٦ هـ) قام بعض تلاميذ الدؤلي بوضع نقط للأحرف للتمييز بينها، وهذه النقاط كانت تكتب بنفس لون الحبر، وقد تطور وضع النقاط للحروف حتى استقر على شكلها المعروف اليوم، فمثلًا كانت الفاء والقاف والنون والياء تنقط إذا كانت موصولة بحرف، أما إذا كانت مفصولة فلا تنقط؛ لأنها لا تشتبه على القارئ! وكانت الشين عند بعضهم لها نقطة واحدة فقط، والقاف نقطة من تحت، وهو ما يزال معمولًا به لليوم في المصاحف المغربية.

وقد كانت الكاف لا تعرف إلا بشكلها بالخط الكوفي، ولما تم تطوير الخطوط العربية وأصبح حجم الكاف قريبا من حجم اللام وضع لها علامة تشبه الكاف الصغيرة لتتميز عن اللام إذا كانت في نهاية الكلمة ووضع لها شكلة في أعلاها إذا كانت في بداية أو وسط الكلمة، كما قام بعضهم باستخدام خطوط صغيرة بدلًا من النقاط، ولكن هذه الطريقة اندثرت، وسميت هذه النقاط بالإعجام.

ثم جاء وضع علامة خاصة للهمزات والسكون والتشديد والمد، وقد مرت علامة الهمزة (ء) بتقلبات كثيرة حتى استقرت على هذا الشكل.

بتنقيط المصاحف ثم استخدام علامات التشكيل وإعجام الأحرف بالنقاط، تم المحافظة على الرسم العثماني كما هو، وتم تسهيل قراءة القرآن على الوجه الصحيح.

وننتقل لجهود العلماء في تسهيل قراءة المسلم والمسلمة لوِردهما وحزبهما اليومي من القرآن الكريم، لأن القرآن جاء ليقرأ ويعمل به في كل وقت وفي كل شيء، فروى مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من نام عن حزبه أو شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنه قرأه من الليل"(١)، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يحزبون القرآن بالسور سبعة أحزاب، فيختمونه في كل أسبوع.

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٧).

ولذلك اهتم العلماء من زمن الحجاج بعدّ أحرف وكلمات القرآن الكريم باستخدام حبات الشعير، ومكثوا أربعة أشهر في ذلك، فبلغت كلماته سبعة وسبعين ألف كلمة وأربع مئة وتسعًا وثلاثين كلمة (٤٣٩ , ٧٧)، وعدد حروفه ثلاث مئة ألف وثلاثة وعشرين ألفًا وخمسة عشر حرفًا (٣٢٣٠١٥)، أما عدد آياته فهو ستة آلاف ومئتان وست وثلاثون آية (٦٢٣٦)، ومعلوم أنه ١١٤ سورة، ووصل بعض العلماء إلى أرقام أخرى بفروقات قليلة، وسبب ذلك منهج العد هل الحرف المشدد يحسب حرفًا أو حرفين، وهل نعد المكتوب أو المنطوق بالنسبة للحروف، أما الكلمات فهل حرف (عن، في، ..) يعد كلمة أم لا؟

وبناء على ذلك تم تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع، ومر ذلك بعدة أطوار لكنه استقر على تقسيمه كما يلي:

تقسيمه إلى ثلاثين جزءًا ليقرأ في كل شهر مرة، وكان تحديد بدايات الأجزاء بحسب عدد الحروف، ولذلك نجد أن أجزاء القرآن متساوية في المقدار سواء في عدد الصفحات في المصحف أو في الوقت اللازم لقراءة أي جزء وتكاد تكون متساوية تمامًا.

ثم تقسيم كل جزء إلى حزبين، وكل حزب إلى أربعة أرباع، واعتمدوا في تقسيم هذه الأحزاب على عدد الكلمات، ولأن عدد أحرف الكلمات متباين تباين مقدار الحزب والربع.

والهدف من تحزيب القرآن الكريم تسهيل عملية الحفظ، ولذلك قام بعض العلماء بتحزيب القرآن إلى ٣٦٠ حزبًا، ليتمكن المسلم من حفظ القرآن الكريم في سنة واحدة.

وننتقل الآن إلى تاريخ طباعة المصحف والتي ساهمت في توحيد شكل المصحف وحجمه بعد أن كان مختلف الحجم والخط بسبب النسخ اليدوي.

معلوم أن اختراع آلات الطباعة كان في أوربا سنة ١٤٣١م، وهو العهد الذي كان فيه الاستشراق الأوربي في عنفوانه، وكانوا هم أول من طبع كتبًا بالعربية، وبحسب موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوي فأول مطبعة عربية كانت في روما سنة ١٥٨٦م، وأول كتاب طبعته هو كتاب "القانون" لابن سينا في الطب وأنجز سنة ١٥٩٣م، وفي أثناء

طباعة كتاب القانون تم طباعة بعض الكتب العربية الصغيرة والإنجيل، وتعاون السلطان مراد الثالث مع المطبعة لطباعة كتاب "تحرير أصول أوقليدس"، لكن كانت طباعتها رديئة فتوقفت من سنة ١٥٩٣م إلى سنة ١٦٤٠م.

لكن طباعة القرآن بدأت بطباعة بعض سور القرآن مثل سورة يوسف سنة ١٦١٧م، ثم بعض السور في أمستردام سنة ١٦٤٦، وغيرها، لكن أول طبعة للقرآن الكريم كاملًا كانت في سنة ١٦٩٤م في ألمانيا. لكن د. بدوى يقول إن هناك مصادر أوربية تشير إلى أن القرآن طبع كاملًا في مدينة البندقية سنة ١٥٣٠م، لكن أحرقت جميع النسخ ولا أثر لها.

ثم توالت الطبعات، وطباعة فهارس للقرآن الكريم، وتراجم للقرآن، لكن هذه الطباعة كانت مليئة بالأخطاء، حيث تجد كلمة مكان كلمة أخرى، أو وصل الحروف بما لا ينبغى أن توصل، وهذا بسبب ضعف المشرف بالعربية وقلة الخبرة والمراجعة.

وينقل د. صبحي الصالح عن المستشرق بلاشير أن أول طبعة إسلامية للمصحف كانت في سانت بترسبورغ بروسيا سنة ١٧٨٧م قام بها مولاي عثمان، وبعدها تتابعت طباعة المصحف الشريف، وكانت مختلفة الحجم والخط بحسب حروف كل مطبعة، ولم تكن تلتزم بالرسم العثماني، مما استنكره العلماء.

وفي عام ١٣٠٨هـ قام الشيخ المقرئ أبو عيد رضوان بن محمد المخللاتي بكتابة نسخة متقنة من المصحف وطباعتها في القاهرة أصبحت مرجع طبعات المصاحف في العصر الحديث، بسبب تخصصه في علوم القرآن الكريم ومباشرته نسخ المصحف بنفسه بدلًا من الخطاطين الذين يجهلون أحكام كتابة المصاحف التي نص عليها العلماء.

ولكن مع إنشاء مجمع الملك فهد للمصاحف في المدينة المنورة سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م، تم نسخ مصحف خاص من قبل الخطاط الكبير عثمان طه بإشراف ثلة من العلماء وأصبح هناك مصحف موحد تقريبًا في غالب أنحاء العالم، حيث صدرت ملايين النسخ من مصحف المدينة.

والحمد لله رب العالمين.